

ذكر نوع من التفكير في عظمة الله عز وجل ووجدانيته وحكمه وتدبيره وسلطانه قال الله عز وجل: وفي أنفسكم أفلا تبصرون

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال رحمه الله تعالى: ذكر نوع من التفكير في عظمة الله عز وجل ووجدانيته وحكمه وتدبيره وسلطانه قال الله عز وجل: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } . فإذا تفكر العبد في ذلك استتارت له آيات الربوبية، وسلمت له أنوار اليقين واضمحلت عنه غمرات الشك وظلمة الرب؛ وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكونة مكونة مجموعة مؤلفة مجزأة منضدة مصورة مترتبة بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مدير إلا بمدير ولا مكون إلا بمكون وتجد تدبير المدير فيه شاهدا دالا عليه، كما تنظر إلى طعان البناء وتقديرها وإلى السقف المسقف فوقه بجذوعه وعوارضه وتلبيين ظهره ونصب يابه وإحكام غلقه ومفتاحه للحاجة إليه، فكل ذلك يدل على بانيه ويشهد له. فكذلك هذا الجسم إذا نظرت إليه وتفكرت فيه وجدت آثار التدبير فيه قائمة شاهدة للمدير دالة عليه، فقد أيقن الخلاق كلهم أنهم لم يكونوا من قبل شيئا ولا كان لهم في الأرض أثر ولا ذكر، فصاروا وهم لا يشعرون أنفسا معروفة مصورة مجسومة قد اجتمعت فيها جوارح وأعضاء بمقدار حاجتهم إليها لم يزد لهم على ذلك ولم ينقص منها من قطرة ماء؛ لجوما منضدة وعظاما مترتبة بحبال العروق ومشدودة بجلد متين موفى لحمه ودمه ما قد ركبت فيه مائتان وثمانية وأربعون عظمة وشدت بثلاثمائة وستين عرقا فيما بلغنا؛ للاتصال والانفصال والقبض والبسط والمد والضم، ويجعل فيه تسعة أبواب لحاجته إليها. فمنها أذناه المثقوبتان لحاجة السمع قد جعل ماؤهما مرا لثلا يلج فيها دابة فتخلص إلى الدماغ وذلك الماء سم قاتل، وعيناه لحاجة الرؤية مصباحان من نور مركبان في لحم ودم، وقد جعل ماؤهما مالحا لثلا يفسدهما حرارة النفس بالنفس ولا يذوبان لأنه شحم، ومنخره المثقوبان لحاجة الشم والنفس والإلقاء ما يجتمع في رأسه من قدر المخاط، وفوه المشقوق لحاجة التنفس والكلام والأكل والشرب، قد جعل ماؤه عبدا ليجد لذة الطعام وطعم المذاق مركبة فيه والأسنان لحاجة المضغ من أغلاه إلى أسفله كحجري رحي يطحان الطعام بينهما. ودونهما مجرى الطعام والشراب حتى يسوق إلى المعدة؛ وهي كالقدر في الجوف قد وكلت بها نار تنضج فيها وهي الكبد بهما قد وكلت بذلك الطعام أربع من الرياح؛ ريح تسوقه من الفم إلى المعدة وريح تفسد في الجوف إلى أن يصل نفعه إلى البدن وريح تصرف صفوته في العروق كما يطرد الماء في الأنهار وريح تدفع ثقله وفضله، وذلك حين يجد في جوفه تجريد الخلاء والبول وبقيله ودره لحاجته إلى طرح ذلك الفضل وكل واحد منهما عون على شيء من الأشياء التي بها تنال اللذات وتدرك الطلبات وتحبي النفس وبطيب العمر، ولو نقص منها لأمريء عضوا أو جراحة لطفق منقوص الحظ من شهوته وعاجزا عن إدراك بغيته، ولو زاد فيها لضرته الزيادة وتأذى بها وأظهرت فيه عجزا كما يظهر النقص منها، وإن خص الله عبدا بنقصان أو زيادة في عضو أو جراحة فذلك دليل على ابتلائه واختياره وتعريف من خلقه سويا فضل إنعامه وإحسانه. وقد علم المخلوق أنه مدير وأن له خالقا هو مدير؛ لأنه وجد العين مدبرة للبصر ولولاها لكان لا يقدر على النظر ولا يرى الدنيا ولا عجائبها ولا يفرق بين الحسن والقيح فيها. والأذن تستمع ولولاها لكان لا يقدر على سماع كلامه. لا يسمع كلاما ولا حسا ولا همسا ولا يستفيد أدبا ولا علما ولا يدرك قضاء ولا حكما. والأنف للشم، ولولاها لكان لا يتلذذ باستنشاق طيب ولا ينسيم ريح ولا يميز بين دواء نافع وسم قاتل. والعم تنسجها إلى ما استيطان منه به ينزل الطعام والشراب ويصعد النفس والكلام، ولولا ما ذاق طعم الحياة ولا تخلف ساعة عن مهل الأموات. واللسان للنطق، ولولاها لكان لا يقدر على دعاء ولا نداء ولا على نجوى ولا على طلب شيء ابتغى أو اشتهى ولا على شكوى أو وصف بلوى. واليد للبطش ولولاها لكان لا يستطيع قبضا ولا بسطا ولا تناول ولا دفعا ولا تلقا ولا حكا. والرجل للمشي ولولاها كان لا يخطو ولا ينهض ولا عن مكان إلى مكان ينتقل. والفرج معين الشهوة ونهج للنطفة، ولولاها لكان لا يوجد له نسل ولا يرى له عقب. وسبيل سائر الجوارح التي لم نصفها بسبيل ما قد أتى وصفنا عليها منها. وفي التفكير في الأمعاء وما فيها من الهواء والدماغ والعصب والشوى اللاتي منها ما هي بمجاري الأطعمة والأشربة والأغذية. ومنها ما هي مقامن الروح والنفس، والعقل والحلم والجهل والعلم والحدق وغير ذلك، وفي رحم المرأة الذي يقع فيه الماء الدافق، ويخرج منه الخلق الكامل وفي المفاج التي يجري فيها الدم والنفس والتي ينزل عليها من الأنثى للولد، والتي تنشق مما يدخل الجوف وتجا به النفس ويربو عليه الجسم، والتي يخرج بها ما تقضمه المعدة مما لو بقي فيها لقتل صاحبها الشدة، وفي ورود الروح البدن من غير أن يرى من أين ورد أو كيف حدث، وصدوره عنه بلا أن يعلم كيف صدر وأين ذهب، ثم إن الخلق جميعا على سبيلين ذكور وإناث، والأنام طرا على نوعين رجال ونساء، وإن جوارح كل أحد على مثال غيره وصورة كل واحد تختلف عن صورة غيره فأى دليل لمدعي حتى في دعواه أوضح مما وصف، وأي حجة له أؤكد مما أحضرت. ألا يعلم المعطل الشقي الجاهل الغوي؛ حين لم يكن لنفسه في خلقه صنع ولا عرف لها في الأرض صانعا أن مثل هذه الأشياء المتففة المنتظمة الملتزمة المتشاكلة المجتمعة في خلق واحد، وكل أحد سبيله سبيل ذلك الواحد، ومثل هذه العجائب التي يعجز علم كونها فضلا عن إحداث مثلها لا تتكون من ذاتها ولا يستطيعه إلا حكيم قدير على إنشائها، ثم الدلائل الواضحة والعلامات البينة في تغيير الأمور، وتصرف الدهور التي لا يستطيع دفعها ولا إحداث مثلها الملوك بسلطانهم ولا المثلون بأموالهم، ولا أولو القوة بقوتهم ولا أهل الرأي بتدبيرهم. وفي العجائب التي يحار فيها البصر ويعجز عن وصفها البشر ما قد صارت كلها مدبرة لمصالح الأنام وأرفاقهم وأغذيتهم وأرزاقهم بغير صنع فيها لهم، ولا حول ولا قوة منهم، فلو رجعت الأرواح إلى أجسام كل من مضى من الدنيا؛ فاجتمعوا من كل من بقي على تغيير شيء منها أو خلق شيء مثلها بإفراغ الواسع وقرط الاجتهاد وبذل الأموال ما استطاعوا ولا قدروا عليه؛ فمنها سماء قائمة في الهواء بغير عمد ولا أطناب، ترى تظلم وتبدي من زينتها لهم نجوما طالعات زاهرات جاربات، لها بروج مفهومة ومطالع معلومة، وهي علامات للسفر للسهل يهتدون بها في البر والبحر. والشمس تطلع أول كل نهار من مشرقها وتغرب في مغربها. لا يرى لها رجوع ولا يعرف لها مبيت، تدير فيستضيء بضوئها الدنيا لهم تزهر، وتحمي قلوبهم بزهرها الزروع والخلق، وهي للفقير دنار في الفقر وللغني عون في الحر. وقمر يبدو على أي البرد الزيادة والنقصان فيعرفون به عدد الشهور والأعوام وصبح يفلق فهو لهم معاش يتصرفون فيه لأمرهم، وليل يغسق، فهو لهم سكن يريحون فيه أبدانهم بهجوعهم، وأزمنة نفاعا للخيرات جلابة تنتقل في كل حول مرارا من حال إلى حال، ثم تعود عند انقضاء الحول إلى أول حال، فلهم في كل حال منها سبب يجري عليهم نفعا، ويجلب إليهم رزقا، ورياح لا يرى لها جسم ولا يعرف لها كن؛ تلقح لهم الأشجار فتحمل لهم الثمار وتروح الأجسام وتطيب الأبدان، وهي مطردة للأفات التي تحدث بين الأرض والسموات. سحب يدر عليهم الغيث في أوان انتفاعهم به ويمسك عنهم وقت استغنائهم عنه، فتتمد لهم منه الأنهار وتغمر به البلاد ويكثر منه الحب والنبات ويحيا به النواهي والموات. وأرض على الماء مبسوطة وهي لهم مهاد ومعيشة تنبت لهم المطاعم والملابس، وتخرج لهم المشارب والمغانم وتحملهم على ظهرها ما عاشوا، وتواربهم إذا ما ماتوا. وجبال هي أوتاد لأرضهم لتستقر ولا تميد بهم؛ وتخرج لهم الجواهر والأموال ولينتحتوا منها البيوت ويرعوا فيها الأغنام ويقدحوا منها النار التي فيها دفئهم، وبها تصلح أغذيتهم وتطيب أطعمتهم. وماء فيه حياة كل شيء ومنه أصل كل شيء؛ يروهم من العطش وينقهم من الدنس ويطهرهم من النجس، وقد امتد منه بحور تجري الفلك فيه يحملهم إلى المكان العبد، ويأكلون منها اللحم الطري ويعثر لهم عن الحلي والطيب، أو تبعث الأرض لهم منه ماء يسوقونه إلى المواضع التي يحتاجون إليه فيها؛ لينبت لهم المأكول التي يعيشون بها، وخرنت منه ما يبرد لهم في القبط ليستلذوا شربه ويفتر لهم في الشتاء لثلا يؤذيهم برده حين يستعملونه. وأنعام لهم دفاء ومنافع ومطاعم وملابس وفيها لهم جمال حين تريحون وحين تسرحون { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ } وتتخذون من جلودها بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثانا، ويشربون مما في بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشرابين، وخيل وبعال وحمير ليركبوها ويتزينوا بها، ونحل تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، وتأكل من كل الثمرات ويخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه لهم شفاء ولذة. ثم ما وجد من خلق سائر الأمم والحيوان وما هديت لما قدر لها من الأزراق، ثم غير ذلك مما في السموات السبع وفي الجو بين السماء والأرض. وفي البراري والبحار والفيافي والديار والشعوب والجبال، وفي تخوم الأرض وطلمايتها وحوادث الدهر وخطراتها من العجائب التي لا يبلغها وصف وأصاف، ولا يدركها علم عالم، وكلها نبئ لما يقع من العبر فيها أنها مخلوقة مكونة مصنوعة مدبرة بتدبير حكيم عليم سميع يديره في سبيل واحد غير معلم ولا مقوم ولا محدث ولا مبدى، علم ما يكون قبل أن يكون، وعرف بكل شيء ما يصلحه وسهل عليه كل شيء شاء وانيسطت يده في جميع ما أراده لم يعجزه شيء عن شيء ولا منعه شيء عن شيء، فخلق الأشياء كلها كما شاء وقدرها وجعلها متضادة وقومها، وسبب لها معاشها ومصالحها وجرسها بعين لا تنام، وحفظها بلا معين ولا نصير ولا هاد ولا مشير ولا كفو ولا شريك ولا ضد ولا نظير ولا والد ولا نسب ولا صاحبة ولا ولد. ومن لإثالب البعث أن الحبة الميتة قد تدفن في التراب ليس لها ورق ولا عصن ولا شعب ولا ثمر ولا لون ولا ريح ولا طعم ولا حركة، فيمكثها الله في التراب ثم يحييها { قَالِ الْحَبُّ وَالنَّوَى } فيخرجها من مدفنها متحركة بعدما لم يكن لها حركة وتخرج من التراب مع شعب وورق ولون وريح وطعم، ولم يكن لها شيء من ذلك حين دست في التراب؛ فكذلك الإنسان حين يدس في التراب وليس له حركة ولا روح ولا سمع ولا بصير كالحبة الميتة ثم يخرج من الأرض مع روح ولا حركة ولا سمع ولا بصير قد جعل الله تبارك وتعالى ذلك تبيان لعباده ودلالة علي معاده قال الله تبارك وتعالى: { وَأَنْتَ لَهْمُ الْأَرْضِ الْحَيَّةُ أَحْيَيْتَاهَا وَأَخْرَجْتَا مِنْهَا حَبًّا } وقال تعالى: { وَتَرَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُتَارِكًا فَاقْتَبَيْتْهُ بِحَبَاتٍ } إلى قوله: { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } . فسبحان الذي أوضح دلالاته للمتفكرين وأبدي شواهد له لناظرين، وبين آياته للعالمين وقطع عنر المعاندين وأدحض حجج الجاحدين وأعمى أبصار الغافلين، وتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله مالك يوم الدين، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين. هذا كلام من المؤلف رحمه الله لم ينقله عن غيره ولكنه بعدما ذكر الكثير من الآثار والآيات والأحاديث والنقول التي نقلها عن الأئمة من الصحابة أو من التابعين أو من علماء الأمة التي فيها الحث على التفكير والتعقل في آيات الله تعالى العلوية والسفلية، والتأمل فيما خلقت له وفي خلقها وفي تكوينها والاستدلال على ذلك بالأدلة الواضحة، ذكر بعد ذلك هذا الفصل الذي يذكرنا فيه أو يلفت أنظارنا وأسماعنا إلى أن نجعل الأفكار فيما بين أيدينا وفيما خلفنا، وأن نحرض على أن نتأمل في هذا الكون وما فيه من العجائب، وما فيه من الآيات وما فيه من العبر حتى يتذكر العباد كيف خلقوا ولماذا خلقوا، ويعرفوا أن الذي خلقهم لم يخلقهم إلا لحق عليهم له، وإن كان غنيا عنهم.